حيرة واضطراب رب ان النفس لترضى بان تذوق الموت مائة ألف مرة ولاتذوق حرقة فرقتك مرة واحدة رب ان مصائب الدهر وجميع الامراض القتالة لو اجتمعت علىّ لاحتملتها غير متوجع من وقعها ولـكن لاطاقة لى على احتمال بعدك عنى رب لو احتجبت عنا برهـة اقحلت أرضنا وغاضت أنهارنا فاذا يكون حالنا لو دام هذا الاحتجاب لولاه لما احرقت نار الجحيم واشتد لهيبها رب ان فى تجليك حياتنا وكمال سعدنا ونعيمنا وفى احتجابك عذابنا وجحيمنا)

الفصل الخامس

﴿ القضاء والقدر ﴾

متشابهات القرآن ومذهب الناسخ والمنسوخ — الاختيار والقضاء والقدر فى القرآن والحديث — مذهب (توماس) ومذهب (مولينا) — الجبرية والقدرية

يثبت الناس كل مبحث بالقرآن اذ من السهل جداً ان يجد فيه الباحثون سنداً لدعاويهم المتناقضة والقرآن فى هذا لايختلف عن غيره من الكتب المقدسـة التى تستوقف المطالع بظواهر متشابهاتها والقرآن على مذهب اهل السنة قديم مرقوم من الازل فى اللوح المحفوظ ونزل به الملك جبريل (عليه السلام) فى الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان وهى ليلة

القدر من السماء السابعة الى السماء الرابعة

ثم نزل على النبي فى الارض مفرقا فى مدى الثلاثة وعشرين سنة وهى مدة الرسالة ونرى انه لا يجب الاخذ بهذه الرواية الا فى أمر واحد هو ان الست آلاف آية التى يتألف القرآن منها نزلت تباعا بعضها اثر بعض على غير تساو فى العدد كل مرة وفى ظروف مختلفة عن بعضها كثيرا بحيث تلزم معرفتها حتى يتمكن الباحث من النظر فى المتشابهات منها وبينما الانجيل يقص على الناس جميع أدوار حياة رسوله وتعاليمه بعبارة وافية سهلت على المسيحيين من مبدإ أمرهم ان يتناقلوها خلفاً عن سلف ترى القرآن لا يأتى على شئ من ذلك غير انه كلام الله لنبيه وان سورة كذا مكية وسورة كذا مدنية وهو تقسيم اختيارى ادخل عند جمع الكتاب وليس فيه شرح او حديث يساعد على معرفة الوقائع والظروف التى استنزلت سوره وآياته وهذا هو أحد الاسباب التى تحمل على القول بان فى القرآن اختلافا وهناك سبب اخر مقبول ذلك ان الوحى كان ينزل على النبى بحسب حالة الافكار وتحولها الدينى بسبب رسالته فكانت الايات تنزل كما تقتضيه تلك الحال وكان من اللازم طبعاً حصول التعديل فى اللاحق منها حتى يلائم المقام فالحكم الذى يوحى به لرد شبهة ظهرت تخالف ذلك الدين الجديد لا يمكن ان يبقى كما نزل بعد تبدل الأحوال وزوال السبب من الافكار وليس من ينكر على الطبيب تنويع الادواء بحسب أدوار المرض وتقلباته وعلماء الاسلام يردون طعن المنددين فى هذا الموضوع بمذهب الناسخ والمنسوخ فيقولون ان الله انزل أحكاما فى القرآن ثم نسخها بغيرها لاسباب

حكمية عالية

وتنقسم متشابهات القرآن الى قسمين فمنها ماهو ظاهري فقط يسهل التوفيق بين قضاياه ومنها ما خفي سببه أو تعسر فهمه خصوصاً فيما يتعلق بالقدر المحتوم ولذلك تشحذت افهام العلماء في الكلام عليه وما جاء في القرآن متعلقاً بهذا الموضوع قليل في جانب ماورد في الاحاديث الشريفة وهي مجلدات كبيرة جاءت بجانب القرآن كالقوانين الكنائسية وحكمها يكاد ان يكون كحكم تلك القوانين ولكنها ليست عند المسلمين في درجة القرآن اعتباراً وقد اعتنى الجامعون كثيراً في جمعها ولكنه حصل بعد النبي بمائتي سنة تقريباً ولذلك لا يمكن للباحث ان يثق بصحتها وثوقه بصحة القرآن نفسه فلا يبعد ان بعض المتكلمين أضافوا رأيهم الى النبي وان كثيراً من الاحاديث المنسوبة اليه موضوعة لم تصدر عنه

ومن ذلك سهل على بعضهم ان يستنتج من بعض آيات القرآن ومن كثير من الاحاديث على الخصوص بان الاستسلام للقضاء والقدر اس من اساسات الدين الاسلامي وركن من اركان الاعتقاد بانه لا اختيار للمرء في افعاله ولكني ارى من السهل أيضاً ان يجد الباحث في القرآن والحديث سنداً في القول بان الدين المحمدي لا ينافي الاختيار في الانسان على انه من المسائل التي جاءت في الكتب المقدسة مالا تزال تحت نظر المتكلمين وهم الى اليوم لم يهتدوا الى حلها ومسألة التوفيق بين قدرة الخالق وارادته في كل شيء وبين الاختيار في الانسان مسألة يشترك فيها المسلمون والنصارى والخلاف فيها عند كل فريق لا يزال قائماً حتى الآن

وصف النبي ربه بانه العالم بكل شئ ثم وصفه بانه علام الغيوب وهذا الوصف الاخير جزء من الاول وقدرة الذات الالهية واستخلص من ذلك تبعية المخلوق وقال ان الله هو السبب الاعظم الاولى فى كل شئ فارجع اليه جميع اعمالنا لذلك جاء فى غير موضع من القرآن (وهو القاهر فوق عباده (عالم الغيب والشهادة (قل كلٌ من عند الله) وكلها حقائق دارت عليها أبحاث المختلفين والنقيض على ما يقولون وهو الاختيار فى الانسان مؤيد أيضا في مواضع كثيرة من الكتاب فقد عد المشتغلون بالتفسير واحداً وخمسين آية كلها فى اثبات ذلك الاختيار يضاف اليها ثلاث عشرة آية تختص بمسؤلية الانسان عن فعله وكان من المتمنى ان يأتى النبي بما يوفق بين هذين الامرين على ان غيره من الكتب المقدسة لم يتعرض لذلك ولم يأت اجتهاد العلماء فى التوفيق بين هاتين الحقيقتين بفائدة غير توسيع الخلاف او وضع الخلط والتعسف موضع سر لم تصل اليه الافهام وقد اعترف بذلك (بوسويه) فى كتابة (الاختيار) حيث يقول ان الحق لا يهدم الحق وتعذر جمعهما على الافهام لا يستلزم عدم الاعتقاد بصحة كل واحد منهما فمن المستحيل نفي الاختيار لثبوت القدرة الالهية ولا نفى القدرة الالهية لوجود الاختيار فى الانسان لانهما حقيقتان لاشك فيهما وكان يرى ان هذه المسئلة مما لا تطيقه افهام النوع البشرى وكان يوصى من يقترب منها (بان يتمسك بطرفى السلسلة جهده وان لم يقف على وسطها حيث يرى كيفية الاتصال بينهما) وهذان الطرفان اللذان لا ينبغي افلات احدهما هما القدرة الربانية والحرية الانسانية أى الاختيار والوسط

الخلق علينا هو التوفيق بينهما فلسنا نعرف صنع الله الذى به يحفظ على المرء اختياره ولا كيف ان السبب الكلي القديم لايعدم السبب الثانوى الحديث قال (بوسويه) (ذلك امر يعلمه الله فلا شأن لنافيه ولا يضرنا بقاء السر مكتوماً لديه (سبحانه وتعالى) وهذا هو مذهب المسلمين الحقيقى فى الموضوع فان سألتهم كيف يجمعون بين قدرة الله والاختيار اجابوك من فورهم ذلك علمه عند الله كما قال (بوسويه) او قالوا ليس لاحد ان يبحث فيما يريد الله ولله ان يسأل عبيده عما يريد كما قال شيخهم البركاوى وجاء فى القرآن (لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون)

ومن هنا يتبين لك مقدار اعتقاد المسلمين فى القضاء والقدر وانما ترجع التبعة فى مذهب الاستسلام لبعض المتكلمين من علماء الاسلام دون البقية وهم الذين نفوا الاختيار حتى لا يعارضوا به قدرة الله وتفرده فى الوجود ومنهم من رأى حل الاشكال في عكس ذلك وهم احزاب الاختيار فبينما الجبرية يقولون ان كل عمل للانسان صادر عن الله يقول القدرية ان المرء يخلق اعماله بنفسه ولا شك ان ما رواه (بالجراف) اثناء طعنه على مذهب القضاء والقدر عن النبي حديث لاحد الجبرية مذهب للرسول ولم يكن من كلام النبي وهو (لما اراد الله ان يخلق الانسان تناول بيديه الطينة التى تكوّن منها وقسمها الى قسمين متساويين وقال هذا للجنة ولا أبالى وهذا للنار ولا أبالى ولذلك اشتد (بالجراف) على الاسلام كغيره من مستشرقى الانكليز ورماه بانه دين عباد القوة حيث ان الههم اله بيده جميع الاعمال اختصاصاً واستئثاراً)

ونحن نسلم انه قد يتأتى ان عالما من علماء التوحيد المسلمين يحكم بان النعيم أو الجحيم مقدران أزلا بناء على رواية سندها غير مجمع على صحته ولكنا لانسلم مطلقاً ان ينحو هذا النحو علماء البحث فى حقائق الامور والتنقيب فى اصولها ولذلك يسهل علينا ان نقبل من (بالجراف) قوله بان دين الاسلام يرجع كل شيء الى قدرة الخالق ولا نقبل مذهب الجبرية على ان محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم يكن من عباد القوة لكونه رأى في الله السبب الاولى فى كل شيء وسنبين ان مذهبه مقول به من فريق رفيع الكلمة بين علماء الكلام المسيحيين الذين لم يطعن على رأيهم ولم يتعرض أحد من الباحثين للقدح فى مذهبهم وليس الاسلام من الديانات التى ترجع كل شئ الى القوة بل هو أول دين ميز بين الخلق والخالق على نحو واضح بقول صريح فما أبعد الاعتقاد بالوهية الطبيعة عن شرع محمد عليه السلام فهو الذى اخرج عن الالوهية ماليس منها وبعيد عليه بعد ذلك ان يقول بان الله انما هو كل شئ ومن جهة ثانية لو رجعنا الى طبيعة افكار الشرقيين لرأيناها لاتلائم مذهب الطبيعيين وانما دب فيهم هذا الفكر من الاعجام الذين اكثروا من السفسطة فى الاسلام حتى مالوا به الى الطبيعة

ونقل (سالس) عن البخارى حديثاً يؤخذ منه ما يدل على تقرير مذهب النعيم ازلا عند المسلمين ولا يخفى ان البخارى كان من الجبرية القائلين بان الله يخلق فى المرء أعماله كلها فالانسان غير مختار وهذا ما نقله (سالس) (تقابل موسى مع آدم أمام العرش فقال موسى أنت آدم الذى

خلقك الله ونفخ فيك الروح وأمر الملائكة أن يسجدوك وأسكنك الجنة ثم حرمها على الناس بخطيئتك فقال آدم وأنت موسى الذى اختاره الله برسوله وائتمنك على أوامره فانزل عليك الالواح بشرعه ووهبك مناجاته اتعلم كم من الاعوام كتبت التوراة قبل ان أخلق في الوجود فقال موسى اربعين فقال آدم أو ما قرأت فيها (فعصى آدم ربه وغوى) فاجابه موسى نعم فقال له آدم اتقدم على ملامتى لانى فعلت ما كتب الله انى فاعله قبل ان يخلقنى باربعين سنة بل قبل ان يخلق الله السموات والارض بخمسين الف عام)

ولو اننا علمنا لمن النصر منهما أمام العرش لحكمنا بوجود الاختيار فى الانسان من عدمه قال البخارى وقد سأل الناس النبي كثيراً عن المنتصر منهما فانتهى بان قال انه كان لآدم عليه السلام وهو حكم بتأييد قول بلا توضيح تراه موضوعاً اخترعه أحد الجبرية تأييداً لمذهبه ولذلك ذهب أحد أحزاب الاختيار الى ان الحق كان بيد موسى وقال ان النبي اجاب بان النصر كان لموسى ولا يؤخذ من هذين الحديثين سوى ان المسئلة كانت موضوع نظر الطرفين بين الانصار انفسهم وهو الواقع لان لدينا من الوقائع والاحوال مايدلنا على انه صلى الله عليه وسلم ما كان يحب الخوض فيها فكان يشمئز من سؤاله عن ذلك ويميل فى محادثاته الخصوصية عن تفسير ما انبهم مما نزل به الوحي عليه (اذا جاء ذكر القدر فامسكوا)

ومما تقدم يتبين انه يجب الاقلاع عن اتهام ابى الاسلام بمذهب الجبرية وان من التطرف القاء هذا الجرم على عاتق المتكلمين من المسلمين

لما قد بيناه من ان اصنفهم على خلاف هذا المذهب وقد قال (رولان) ان الفريقين لم يوضحا رأيهما تماماً ولذلك تناقضت اقوالهما كما تناقضت اقوال غيرهم وفي الواقع نرى هذا التناقض بعينه عند المتكلمين من المسيحيين

ومن تمام الفائدة أن نأتى هنا بالايجاز على ما قاله المسيحيون فى اعمال المرء وتأثير الارادة الالهية فيها فهم منقسمون منذ قرون عديدة الى فريقين عظيمين لكل منهما شيعة ذات شأن خطير وهما فريق (لوايولا) وفريق (دومينيك) ولا يزال الخصام محتدماً بين الطائفتين وكل يزيد فى الخلف بما أودع فيه من حب التعصب لشيعته فهؤلاء يذهبون الى مايقرب من مذهب الجبرية وأولئك يقولون بالاختيار فى الانسان وكل متمسك برأى قومه تمسكا ماعليه من مزيد والفريقان يعملان على تمجيد الخالق جل شأنه مع المحافظة على مذهب شيعته وعدم الخروج عن طغمته

فاما اصحاب (دومينيك) فقد انتسبوا الى (توماس) فقيل لهم توميون وهو عنوان له وقع فى النفوس ومنزلة فى الافكار وسلطة فى المناقشات اذ يتردد الناس كثيراً فى معارضة رأى سدده ملك المذهب (هو القديس توماس المذكور سمى بذلك لبعد صيته وعلو كلمته بينهم) ومع كونه عنوانا رفيع الشأن فان من انتحلوه عادة ليسوا على استحقاق به فادعى احزاب (جامنسانيوس) الهولندى صاحب مذهب القضاء والقدر الذى حرمه البابا (ليون) العاشر انهم من اتباع القديس توماس المذكور ولا يعترف اليسوعيين لفريق (دومينيك) بالتابعية اليه لان مذهبهم يميل الى القضاء والقدر ولم يكن توماس من هذا الرأى في اعتقادهم بل أصل المذهب رجل

اندلسى يقال له (بانيس) كان يدرس علم الكلام فى سلمنك فى أواخر القرن السادس عشر ولذلك ينسب اليسوعيون مذهب دومينيك الى هذا الرجل ولكنا سنبقى للمذهب اسم توما لا ادعاء انه الحق وان لنا من الدرجة مايخولنا ان نأتى بفصل الخطاب فى مثل هذا الجدال ولكن لانه أسم قرره التاريخ فصار معروفا حتى ان المتكلمين من الوعاظ يؤيدون نسبتهم اليه بتغاليهم فى الاعجاب به وتعصبهم لذلك الرئيس الذى كان به مجد عشيرته ولقد ذهب بهم التعصب حتى ادخلوا فى تعاليمهم ان ماتقل عنه انما هو أمر مقدس وحرموا على الخلف الخروج عنه وجعلوه صادرا عن معصوم لايخطأ وفرضوا على المريدين فى مذهبهم يميناً ان يقبلوا كل ماجاء عنه قضية مسلمة بغير جدال ولا مناقشة وما اشبه هذا التحريم بما جاء فى القوانين الاساسية الفرنسويه حيث نصت (لايجوز لاحد ان يطلب من الشورى المناقشة فى شكل الحكومة الجمهورية) بمعنى ان كون الحكومة جمهورية أمر يجب الاذعان اليه مطلقاً ولو طلب من الكنيسة ان تفسر ماتناقض من مذهب هذا الرئيس لخيف على الشيعة ان تنحل روابطها ولذلك تراهم يهربون من التفسير بما منعوا من نظر المجتهدين فقد كان احزاب (دومينيك) ومعهم قديسهم توماس قبل تقرير مذهبه يقولون بان العذراء لم تكن معصومة فلما تقرر مذهبه قالوا معه انها من المعصومات وهو تناقض يحرم النظر فيه كما قرروا اما شيعة اليسوعيين فغير مرتبطة فى تعاليم القديس توماس بهذا اليمين ولكنهم لايريدون الجهر بمخالفته فى دفاعهم عن الاختيار بل يطعنون على (ابانس) ويحاجون مذهبه بمذهب مولينا وهو

يسوعى من البرتغال ولذلك اطلق عليهم عنوان (مولينين)

وكان الجدال عنيفاً بين الطائفتين فبدأ نحو السنة التسعين بعد الاربعمائة والف من الميلاد ودام حتى نهاية القرن السابع عشر ولم تؤثر فى الحزبين أوامر الباباوات المتكررة بمنعهما عن المطاردة وها قد عاد الجدال فظهر فى هذه الايام وكان كل فريق يرمى خصمه فى مبدإ النزاع بالبدع والمروق فقام بانس امام الهيكل وحرم كتاب مولينا مدعيا أنه احتوى على مسائل كلها بدع ترجع الى مذهب (بيلاج) وهو قس ظهر فى القرن الخامس انكر سبق القضاء بالجريمة التى ارتكبها آدم فى الجنة وان كل خطيئة من بعده فخطيئته السبب فيها ورد عليه مولينا فرماه بانه من شيعة (كلفان) وهو العالم الشهير فى القرن السادس عشر مؤسس مذهب البروتستانت فى الدين المسيحي فلما رفع الخلاف الى البابا تحير فى أمره ولم يدر بماذا يحكم بين المتخاصمين وكانت قضية تتشوق الافكار لمعرفتها ويحب كل باحث فى علم الكلام الوقوف على مفصلاتها وقد دامت مطروحة امام البابا (كليمان) الثامن الى بولس الخامس وتداخل سفير اسبانيا معينا لشيعة توماس فلم يفلح بل قوى الخصام وعمد البابا بولس الخامس الى نصح الفريقين باستعمال ما امر به الانجيل من المحاسنة ولين المعاملة فكان يقول (مما لا ينبغى أبداً ان يتخاصم أولئك القسس خصام التحاقد والاستقتال كالمتوحشين) وانتهى قاضى روما فلم يقرر بان الخطاء أصله خطيئة آدم ولكنه لم يقض على أحد الفريقين بل اباح لكل نشر مذهبه وقال ان التنازع فى الدين غير معيب فان الله مع كل متدين والمذاهب تستنير ببعضها كما يجلي

الماس بالماس

وسار اشياع توماس فى مذهبهم شوطا بعيداً حتى فاقوا مذهب الجبرية في الاسلام وكان (بانس) يقول (أن الله هو السبب في جميع الموجودات فليس من سبب سواه فكل مسبب هو سببه وهو المسيطر على كل شئ وليس لغيره سلطان عليه)وكان خلفاءه يجتهدون من بعده فى التوفيق بين رأيه و بين الاختيار فى الانسان فاضطربت اقوالهم واعجمت عباراتهم وقالوا ان كل عمل واجب وجائز معاً فسروه بان الله هو الذى يبعث الارادة فى الانسان ومعلوم ان الارادة مختارة فهى مسيرة حسب طبيعتها اعنى حرة فى عملها وهو غاية فى الخلط ونهاية فى الاغماض

وانتهى الجدال أخيراً بظهور مذهب جديد يقول بتأثير الله واختيار الانسان معاً وهو المذهب الذى مال اليه (بوسويه) لكونه لم يرأحسن منه فى التوفيق بين الامرين ومبناه ان الله سبب اولى والانسان سبب ثانوى ولست اريد ان افسر مذهب مولينا غير انى أقول انه أوجد لفظين سهلا الكلام ان لم يكونا قد سهلا تفاهم هذا المعنى العظيم فكان العلماء قبله يصفون الفعل بكونه واجباً أى لابد من وقوعه وجائزاً أى يحتمل الوقوع وعدمه مع اهمال المستحيل فاضاف هو لفظاً ثالثا جعل معناه وسطا بين الحالتين وقال منتظر[1] وهو عنده الواجب المقيد بشرط اذا تم وقع والا فلا وكان يسمي العلم بالمنتظر علما وسطاً وبهذا يقدّر تأثير القدرة الالهية فى الافعال وخلاصة هذا المذهب تغليب الاختيار على القضاء والقدر رداً لمذهب توماس

(١) هو في علم التوحيد الممكن المشروط

وهو تغليب الثانى على الاول

هذا واذا رجعنا الى الاسلام وجدنا شبهاً كبيراً بين القدرية والموليتيين وبين الجبرية والتوماسيين وهؤلاء وهؤلاء عور كما قال عبد الرزاق فاما القدرية وهم احزاب الاختيار فانهم فاقدوا العين اليمنى وهى الاقوى التى بها يبصر السبب الاولى واما الجبرية وهم القائلون بالقضاء والقدر فقط فانهم فاقدوا العين اليسرى وهى اقل ابصاراً لكنها تبصر السبب الخارجى او الثانوى وعنده (ان الذى يرى الصواب هو الذى يستعمل الباصرتين من قلبه فيرى باليمنى مصادر العمل الاولى ويرجع الى الله جميع الافعال خيرها وشرها ثم يرى الناس باليسرى ويبصر تأثيرهم فى تلك الافعال بذاتها) وكان هذا الخلاف العظيم سبباً فى ايجاد الفاظ مخصوصة استعملها المتناظرون الا انها لا تخلو من السفسطة فقالوا ان لكل عمل قضاء ولكل عمل قدراً بالقضاء يقرر الله كل شئ يكون والقدر هو تنفيذ الشئ المخصوص على النحو الذى تقرر بالقضاء وبيانا لذلك جاء عبد الرزاق بالقصة الآتية (بينما كان النبى صلى الله عليه وسلم سائراً فى الطريق يوماً اذ رأى جداراً يريد ان ينقض فمال عنه فقال له احدهم اتريد ان تهرب من قضاء الله فاجابه انى اهرب من قضائه الى قدره)

وظهر مذهب ثالث اراد التوفيق بين الجبرية والقدرية ومن رأى اصحابه انه ليس من قضاء مطلق ولا من اختيار مطلق بل الحال وسط بينهما والفعل الواحد نتيجة اثرين احدهما الهي والثانى انسانى واشتقوا لهذا المعنى الوسط لفظاً مخصوصاً سموه الكسب الاختيارى وهذا الاشتقاق يعد كنزاً عند

اصحاب الجدال وقالوا ان الافعال تنبعث عن ارادة الله والمرء يكسبها باختياره ووفقوا بين بعض الاحاديث المتناقضة لا ليضعفوا من مذهب السنيين بل ليبينوا ان القضاء الازلى لا يزال سراً مجهولا

ولما سئل النبي عن مصير صديقه ابى هريرة اجاب موجزاً (لقد جف القلم بما قدر له) ومعناه ان مصير كل مخلوق مكتوب من الازل فى اللوح المحفوظ ولن تجد له تبديلا الا ان قوماً سألوه لم يعمل الناس فاجابهم (اعملو فان الله خلق فى كل واحد منكم ما يقدر به ان يفعل ما خلق لاجله) وجوابه هذا قريب من قول (هيرفليت) و (هيجل) من بعده من ان المرء خلق بين اعمال كانت واعمال تكون

ويقرب مذهب عبد الرزاق كثيراً من مذهب (التوميين فى هذه الايام فالمذهبان يتفقان فى ان للاختيار دخلا فى كينونة الافعال وعلى ان ما قدر محتوم من جهة وجائز من جهة اخرى وهى نتيجة لا تنفهم وهو يقول ان القضاء يتناول الفعل نفسه وكيف يقع والكيفية هى الاختيار الانسانى وجاء (بوسويه) بعده باجيال عديدة يفسر الموضوع بذاته كما فسره هو من قبل فقال يعمل الانسان العمل مختاراً بقضاء الله الذى اراد ان يكون مختاراً وهو معه فى جميع ادوار الفعل حتى يكون وليس هذا كل ما يتشابه فيه المسيحيون والمسلمون بل الحال واحد فى امور كثيرة غير ما تقدم كالعدل ومسؤلية العبد ومصدر الشر وايهاب السلامة من الله فى الآخرة وهكذا

الى هنا امسك القلم عن الخوض فى هذا الموضوع ولكن ليسمح لى القارئ ان اذكر تشبيها لعبد الرزاق المار ذكره تأييداً لحجته فانه اراد ذات

يوم ان يبين لاحد طلابه سبب ان الرجل ذا النفس الدنيئة يفضل الشر على الخير مع علمه بافضلية الثانى على الاول فقال له ان مثله مثل الزنجى الاسود الذى يحب أولاده على قبح خلقتهم ويفضلهم على ولد من ابناء الترك مع علمه بانه فوقهم فى الجمال

ثبت والحالة هذه ان الاستسلام ليس من قواعد الاسلام بل هذا مذهب البعض من علماء المسلمين بدأوا كأمثالهم من المسيحيين بان قرروا ان السبب الثانوى فى الافعال خاضع لتأثير السبب الاصلى ثم دفعتهم حدة الخصام فتغالوا بما شذ عن المعقول وخرج عن الصواب ذلك لان المذاهب من شأنها ان يحتدم الجدال بين احزابها فلا يتمكن الهدو من ان يسود فى المناظرات ولا يتحكم المعقول وحده فى المناقشات كما قال (رينبون) ثم قام أناس فنشروا تلك الاقوال المتطرفة سواء عند المسلمين او المسيحيين ولكنهم لم يؤثروا تأثيراً كبيراً كذلك يكون الحال فى كل آن ولن تجد لما فطر عليه المرء من الوجدان تبديلا أما عقله فسيفنى فى البحث عن حل يرضيه لهذه المسئلة الغامضة فاجتماع ارادة الله وارادة المرء فى كينونة كل فعل من الافعال بحث عزيز المنال كما عز على العلماء عند المسيحيين ان يفقهوا معنى الرجل الالهي بشرط ان لا تنتفي احداهما بالاخرى أى الارادتين وهو مذهب غير مرضى عنه عند الموحدين بلا استثناء. قالوا قضاء وحكم ازلى وتأثير وميل واستعداد واجتماع وكلها الفاظ انما تدل على اجهاد الفكر فى استنباط المجهول ومهما اجتهدوا فى بحثهم فان الخطاء لازم لتفسيرهم كيفية تأثير القدرة الالهية فى افعال البشر لان نبراسهم الذى

بهديهم بشرى ولن يصح أن يقاس الاله بالانسان فما اشبه عقل المرء على ضعفه فى بحثه عن النسبة بين السببين الالهى والبشرى بميزان فاسد ان أخذنا من احدى كفتيه يسيراً لنضيفه الى الثانية انخفضت احدى الكفتين على عجل تكاد ان تقلب الثانية وهو دليل على فساد النظر بهذه الكيفية والحاصل ان علم الله وقدرته لن يزالا يظهران لافكارنا منافيين للاختيار فينا ونحن نشعر به حقيقة لامندوحة عن التصديق بوجوده وستتعاقب الفلاسفة ويقتلون ازمانهم فى البحث والتنقيب عن امر لامحيص عنه وليس من فائدة فى حله اذ الحقيقة ومقابلها من المعانى المقبولة عند جميع الناس عالمهم وجاهلهم من دون تعب ولا اشمئزاز فالاختيار فى الانسان مبدأ ادبى بديهى التصديق كما قال (كانط) فهو بعيد عن مناقشات الباحثين ولا تاثير للتنقيب فيه وقد قال (لوتر) أخذاً عن (كلفان) باستعداد الانسان للمؤثرات المادية ومع ذلك لا نرى المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت يشعرون بأنهم ليسوا احراراً فيما يأتون من الاعمال

هذا واذا بحثنا عن السبب الذى اوجب اتهام المسلمين بالاستسلام لوجدناه ناشئاً من عدم ادراك الناس لحقيقة تلك الفضيلة التى هى من خصائص ذلك الدين ومنها اشتق اسمه (اسلام) وتلك الفضيله هى الاحتمال فقليل من الديانات يأمر الناس بالرضوخ الى الارادة الالهية على النحو الذى جاء به الاسلام والمسلمون يعملون بتلك الفضيلة فلايفوقهم فى التمسك بها نساك المسيحيين ومن الخطأ الحكم على المسلمين بمذهب الاستسلام لبعض الفاظ يستعملونها كقولهم هذا مكتوب عند ماتصيبهم محنة فانما

هم يعلنون بذلك خضوعهم لرب السموات والارض كما يفعل المسيحيون بقولهم (فلتكن هذه ارادتك) كذلك نسبوا الى الاستسلام ثبات قدم المسلمين وعدم جزعهم من الموت واقدامهم بشجاعة تتصل بالتهور فى ميادين الحروب مقدمين رؤوسهم الى أسنة الجيوش الاوروباوية في هذه الايام وهو خطأ أيضاً لان تبسم المسلم عند ملاقاة الموت واقتحامه اخطار الحروب انما جاءه من اعتقاده الجازم بنعيم الدار الاخرة ومن شدة ايقانه وايمانه مما يجعل النفس هادئة تلقى الحتوف وهى مطمئنة ولا شك فى ان الدين الاسلامي بتسهيله على الانسان انتقاله من هذه الدار قد حلّ معضلة من اصعب المشكلات ومن النقص فى مثل هذا الدين ان يرمى بانه قلل من شجاعة المسلمين الادبية او أرخى عزائمهم